هذا منطق العصاميين أيضاً، ، وبخاصة الكاتب الإنفتاحي مصطفى أمين.

وليد مسعود، منظّر المجتمع الليبرالي: يطرح وليد أزمة المجتمعات العربية، ذات الطابع الناصري، ويحاول أن يجد لها حلاً.

كيف يطرح الأزمة؟

إن هذه المجتمعات تقتفي خطوات أوروبا، حيث التصنيع كان «أشبه بتورات مرضت على هذه المجتمعات من فوق، وإنها كانت من عمل أقليات عاتية لا تحيد عما صمّمت عليه، وتعتبر المشكلات كلها قابلة للحل بالوسائل التقنية والعقلانية، طلباً للتقدّم».

ويتساءل وليد:

«ما هو الهدف النهائي لذلك كله؟ هل هو تهيئه الرفاه المادي للجميع؟ حسناً، ولكن هل هذا كاف؟ وإذا سلمنا بأنه كاف، هل سيحقق لنا الحضارة التي نطمح إليها؟ أو لن يكون ذريعة لتحرير أهداف خاصة لفئات تعطي الخبز للفم بيد، وتسلّط المقرعة على العقل باليد الأخرى، كما حصل في فترات كثيرة من التاريخ؟».

ويلمس وليد جوهر المشكلة:

«غير أن هذه العقلانية المفروضة من فوق تقلقه [أي وليد]، لأن أصحابها من رأيهم أن يتصوروا أن المجتمع يمكن أن ينظّم عقلانياً بمزيج من الدهاء والقوة، وإذا وجدت عناصر لا عقلانية داخل المؤسسات الإجتماعية، وجب عندها أن تتم السيطرة على هذه العناصر بحزم، وتغييرها حسب حاجتهم...».

إذن، دفع التطوّر بوسائل قسرية ــ العلمنة والتصنيع ــ هو ما يرفضه وليد. والحل؟ يجب أن ينبع من الداخل، حتى نفسح المجال «لنزعة الإبداع الغامضة» أن نتحرّك «بملء الحرية» حتى تفعل فعلها «الحقيقي في المجتمع».

أليست هذه هي الأفكار نفسها التي ردّدها منظّرو الإنفتاح الإقتصادي في مصر؟ الناصرية مارست القمع، ولذا يجب إيقاف التصنيع والإنفتاح على السوق الرأسمالية. لقد أوقفت مصر التصنيع، ولكنها ما زالت تمارس القمع.

هل، فعلاً، لا يوجد إلا حلّين أمام العالم الثالث: التصنيع والقمع، أو الإنفتاح؟

ونزعة الإبداع الغامضة، هي، كما يتّضح من السياق، فكرة آدام سمث عن «يد الله الخفية» نفسها. أن ندع كل شيء على حاله، ولينطلق الجميع، إنطلاقاً من دوافعهم الأنانية، في الكسب دون قيد، عندها سيثري المجتمع ويتم حل جميع مشكلاته.

وإذا كانت هذه الفكرة قد خدمت نشوء الرأسمالية في أوروبا، فإنها، في ظروف العالم الثالث وظروف التطوّر غير المتساوي، لن ينتج عنها سوى إعادة استعمار البلد الذي يخضع «لنزعة الإبداع الغامضة».